ليبيا في مؤلفات أرسطو

للدكتور عبد الرحمن بدوي
رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب في جامعة عين شمس
وأستاذ بكلية الآداب بالجامعة الليبية

« ليبيا تأتي دائماً بشيء جديد »

هذا مثل يوناني قديم ، أورده ارسطو في كتابه « تاريخ الحيوان [١] » و « تولُّد الحيوان [٢] » . ونقله عنه بلنيوس في هذه الصيغة [٣] : semper aliquid novi Africam afferre (افريقية تأتي دائماً بشيء جديد) . وفي هذه الصيغة يتضح المعنى الذي كان يقصده القدماء (اليونان والرومان) من اسم « ليبيا » ، وهو انه يدل على افريقية الشمالية بوجه عام ، لا على ليبيا الحالية . فهذا هو المعنى الذي نجده عند هيرودوتس [٤].

بيد أن أرسطو ، بالاضافة الى ذلك ، كثيراً ما يذكر قورينا : منطقة ومدينة .

---

١ *De Historia Animalium*, VIII, c. 28, p. 606 b 20.

٢ *De Generatione animalium*, II, c. 7, p. 746 b 7.

٣ *Historia naturalis*, ed. L. von Jan et K. Mayhoff, Leipzig, 1906-1909, VIII, 17.

٤ راجع : S. Gsell : *Hérodote*. Alger et Paris, 1916.

ولنشرع الآن في استقصاء المواضيع التي ورد فيها ذكر ليبيا وقورينا في مؤلفات ارسطو :

أ – في « تاريخ الحيوان »

ولنبدأ بكتاب « تاريخ الحيوان » لأنه اكثرها ذكراً لكلتيهما .

١ – في حديثه عن الزيزان يقول : (المقالة الخامسة ، الفصل ٣٠ ص ٥٥٦ أ س ٢١ وما يليه) : « لا نعثر على الزيزان cicada حيث لا توجد اشجار : وهذا يفسر انه في قورينا لا يوجد زيزان في السهل ، بينا هي توجد بأعداد كبيرة بالقرب من المدينة ، خصوصاً في المواضع التي تنمو فيها اشجار الزيتون [١] ، لأن اشجار الزيتون لا تلقي ظلاً كثيفاً. ذلك ان المواضع الرطبة تبعد الزيزان ؛ لذا لا نعثر عليها في الغابات الظليلة [٢] » .

٢ – وبعد ذلك بثلاثة اسطر (م ٥ ، ف ٣٠ ص ٥٥٦ أ ٢٨ – ٥٥٦ ب ٣) يذكر قورينا من جديد فيقول : « والزيزان تضع بيضها في الأراضي القاحلة ، وذلك بخرق ثقب بواسطة عضو محدَّب تحمله في مؤخرتها [٣] ، كما يفعل الجراد ، لأن الجراد يضع بيضه في الأراضي غير المتزرعة ، وهذا يفسر وجودها بكثرة في المنطقة المصاقبة لمدينة قورينا » .

---

١ راجع المقالة الثامنة ف١٧ ص ٦٠١ أ٧ من نفس الكتاب ، وراجع اسطرابون .9 و VI, 1

٢ راجع قول فرجيل « الرعوية » الثانية ، ١٣ : « تحت الشمس المحرقة تطن الزيزان في الاشجار » .

٣ للزيز الانثى عضو طويل قوي لوضع البيض . والجراد يدخل بطنه في الارض ، ويحدث فجوة بواسطة زائدتين صغيرتين صماميتين في نهاية .

ومن هذين النصين نستطيع ان نستخلص :

أ – انه لم يكن يوجد اشجار في سهول منطقة قورينا ، بينما وجدت اشجار في المنطقة القريبة من هذه المدينة .

ب – انه كانت توجد اشجار زيتون متناثرة في المساحات المحيطة بقورينا .

ج – وهكذا كانت منطقة قورينا مؤلفة من ناحية محيطة بالمدينة : متزرعة ، وبأشجار الزيتون خاصة ، وناحية اخرى تمتد على مبعدة من المدينة ، وكانت سهلاً غير متزرع .

هذا من ناحية الزراعة ، اما من ناحية الحيوان فان الزيزان والجراد كانت توجد في منطقة قورينا .

٣ – وعند الحديث عن طفيليات السمك يقول (م ٥ ف ٣١ ص ٥٥٧ أ س ٣٠ وما يليه) : « وفي البحر القائم بين قورينا ومصر يوجد سمك يدور حول الدلفين ، ويدعى باسم قُمَّل الدلفين [١] : وهذا (السمك) الطفيلي يصير سميناً جداً ، لأنه ينتفع بغذاء وفير حين يكون الدلفين غادياً للبحث عن فريسة » .

وهكذا نعلم من هذا النص وجود الدلفين في البحر المتوسط في المنطقة الواقعة بين قورينا ومصر ، اي من برقة حتى الاسكندرية . وقد كان للأقدمين (اليونان والرومان) اعتقادات عجيبة في هذا السمك الثديي . فكانوا يعتقدون انه حيوان وديع ، أليف ، يتأثر بالموسيقى . وقيل في الأساطير أنه ساعد إلهَ البحر نبتون على العثور على صاحبته أمفتريت ، وإن فيلانته انقذها الدلفين لما ان غرقت على شواطىء ايطاليا . ولما ألقى أريون بنفسه في البحر حين هدده ملاحو السفينة التي كانت تحمله ، تلقاه

---

١ هو Naucrates ductor

دلفين انجذب اليه بفضل نغمات كنارته ، وحمله على ظهره الى ان بلغ به مرفأً أميناً . واتخذ ابولو شكل دلفين ليقود جماعة الى سواحل دلف . ونبتون تحول الى دلفين ليخطف ميلانته Mélanthe . ولهذه الاعتقادات كان القدماء يقيمون للدلفين عبادة خاصة : فإله البحر نبتون كان يعبد في سونيوم على شكل دلفين ، وكان من رموز ابولو في دلف : الدلافين. وقد استمرت هذه المعتقدات حية عند الشعوب التي تقطن شواطىء البحر المتوسط ، واتخذوا منه شعاراً لعدة امور . يقول العالم الطبيعي الفرنسي المشهور لاسيبيد Lacépède : « لقد بقي الدلفين رمزاً للبحر عند كثير من الشعوب .. وكان يرسم متلوياً حول ثلاثية الاسنان trident رمزاً لحرية التجارة ، ويرسم حول منضدة ذات ثلاث ارجل للدلالة على مجلس الكهنة الخمسة عشر الذين كانوا يخدمون معبد ابولو ؛ وحين يلاطفه نبتون ، فذلك علامة على هدوء الأمواج ونجاة الملاحين ؛ واذا رسم حول هيلْب ، او فوق ثور ذي وجه انساني ، فانه كان يشير الى ذلك المزاج من السرعة والبطء الذي يعبر عن الفطنة » .

ولهذا نجد شكل الدلفين مرسوماً على الأنواط القديمة في تارنت وفي بوستوم Poestum ، وأنواط كورنثوس ، وايجيوم في (اخايا) وأيوبيه وبيزنطة وسرقوسة وليباري وثيره ؛ واتخذه نيرون وفيتليوس وفسبازيان وتيتوس من الأباطرة الرومان لينقش على الأنواط التي صدرت بأسمائهم .

٤ – وفي الفصل الذي عقده (م ٨ ف ٢٨) بيان كيفية توزيع الحيوان بحسب الأماكن والجيواء يقول : (ص ٦٠٦ أ س^{٥} – س^{٧}) :

« لم تظهر الضفادع التي تنق في نواحي قورينا الا حديثاً . وفي ليبيا كلها لا يوجد خنزير برّي sanglier ولا أيّل Cerf ولا عنزة بريـة chèvre sauvage » .

والقول الأول ورد ايضاً في كتاب « العجائب » المنحول على ارسطو (ف ٦٨ ص ٨٣٥ أ س^{٣٣}) . أما القول الثاني فقد نقله ارسطو عن

هيرودوت (الكتاب الرابع ، الفصل ١٩٢) .

ونحن نعلم ان هيرودوت كان من المصادر الرئيسية التي استعان بهـا ارسطو في وصفه لبعض الحيوان ، ولكنه لم يأخذ بكل ما قاله هيرودوت. فهو احياناً يلخصه ، وأحياناً اخرى يتوسع فيما يقول ؛ وفي احيان ثالثة كثيرة ينقده . لكن الغريب ان ارسطو ، حين يستلهم هيرودوت ، لا يذكر اسم هيرودوت . لكن هذا لا يُشَكِّك في كون ارسطو في هـذه المواضع التي حققها الباحثون انما استلهم هيرودوت . وقد ابرز موريس مانكا[1] ثلاثة عشر موضعاً من هذه المواضع ووضع في مقابلها المواضع المتناظرة عند ارسطوطاليس في كتاب «تاريخ الحيوان» . وهذه المواضع هي:

هيرودوت	ارسطو
٣ : ١١١	ص ١٦٦ أ ٨
٣ : ١٠٣	٩٤٩ أ ٢٠
٢ : ٦٨ — ٧٠	٤٨٧ أ ٢٣ ؛ ٤٩٨ أ ١٤ ؛ ٥٠٥ ب ٣٢ ؛ ٥٠٦ أ ١٧ — ٢٠ ؛ ٥٠٨ أ ٥ ؛ ٥٠٩ ب ٥ — ٨ ؛ ٥١٦ أ ٢٤ ؛ ٥٥٨ أ ١٤ ؛ ٥٨٩ أ ٢٢ — ٢٧ ؛ ٥٩٩ أ ٣٠ — ٣٣ ؛ ٦١٢ أ ٢٠
٢ : ٦٩	٦٠٩ أ ١
٢ : ٧١	٤٩٩ ب ٦ — ١٠ ؛ ٥٠٢ أ ٩ ؛ ٥٨٩ أ ٢٤ — ٢٦
٢ : ٢٢	٤٨٧ ب ٢٩

---

١ Maurice Manquat: *Aristote naturaliste*, pp. 37-47. Paris, Vrin, 1932.

٢ : ٧٥ – ٧٦	٦١٧ ب ٢٩
٧ : ١٢٦	٥٧٩ ب ٥ ؛ ٦٠٦ ب ١٤
٣ : ١٠٨	٥٧٩ ب ٢
٢ : ٧٢ ؛ ٤ : ١٠٩	٤٨٧ أ ٢٣ ؛ ٥٩٤ ب ٢٧ – ٥٩٥ أ ٤
٣ : ١٥٣ ؛ ٧ : ٥٧	٥٧٧ ب ١٩ ؛ ٥٩٣ ب ٢٢
٢ : ٧٢	٥٥٩ ب ٢٤ – ٢٩
٤ : ١٩٤	٦٠٦ أ ٦

ويبدو ان ارسطو كان يثق في الملاحظات التي تتعلق بالمورفولوجيا الحيوانية أو السلوك الحيواني في « تاريخ » هيرودوت ؛ ولكنه كان يتحفظ في قبول التفسيرات التي يبديها هذا المؤرخ فيما يتعلق بهذه الامور. وحاول قدر المستطاع ان يتمم المعلومات التي قدمها هيرودوت . وهذا يتجلى خصوصاً في وصفه الطويل للتمساح : فبينما هيرودوت لا يذكر شيئاً عن التشريح الداخلي للتمساح ، يحدثنا ارسطو عن تركيب معدته وامعائه وطحاله . ومع ذلك ارتكب ارسطو ، فيما يتعلق بالتمساح نفسه ، عين الخطأ الفاحش الذي ارتكبه سلفه المؤرخ هيرودوت ، وذلك حين ايده فيما قال بأن الفك العلوي هو المتحرك في التمساح ، لا السفلي . (راجع موريس مانكا : « ارسطو عالماً بالحيوان والنبات » ، ص ٤٦) .

وقد كرر ارسطو بضعة اسطر من هذه الفقرة في «تكوين الحيوان » (م^{٢} ف^{٧} ص ٧٤٦ ب ٦ – ١١) .

٥ – وفي نفس الفصل يقول (ص ٦٠٧ أ ١ – ٣) :

ويولد ايضاً حيوانات من تقاطع انواع مختلفة : ففي قورينا يتم تقاطع بين الذئاب والكلبات ، وهذه التقاطعات خصبة » .

ويقصد من ذلك ان من الممكن توالد حيوان من جنسين مختلفين من الحيوان ، وانه في قورينا قد يطأ الذئب الكلبة فينتج عنهما حيوان جديد .

وقد اشار الى نفس الظاهرة بلنيوس (الكتاب الثامن : ٦١) .

لكن ارسطو لم يحدد اسم هذا الحيوان الجديد المتولد من وطء الذئب للكلبة .

على انه من المعروف انه على الرغم من شدة العداوة الغريزية بين الذئب والكلب ، فانه قد شوهدت حالات وطء بين هذين النوعين من الحيوان أدت الى تولد حيوان جديد ، وتم ذلك دون قهر ولا قسر . غير ان وطء الكلب للذئبة اندر من من وطء الذئب للكلبة ، ولكن ثم امثلة على ذلك شوهدت وسُجلت .

فأرسطو مصيب إذن في قوله ذاك . ولا بد انه نقل اليه ان هذه الظاهرة شوهدت وسجلت في قورينا ، ولذا نسبها اليها .

٦ – وفي المواقع الخمسة السابقة ذكر ارسطو اسم قورينا ، وهذا يجعل هذه المواقع متعلقة ببرقة من غير شك .

أما سائر المواقع في كتاب « تاريخ الحيوان » فلا يرد فيها إلا اسم « ليبيا » ، بالمعنى الواسع الذي اشرنا اليه في مستهل هذا البحث ، اي افريقية الشمالية (وتمتد جنوباً الى حدود السودان ، وغرباً الى المحيط الأطلسي ، وشرقاً حتى السلوم) .

وقد اوردنا تحت رقم ٥ الموضع الأول من هذه المواضع التي يرد فيها اسم ليبيا . والموضع الثاني هو (م ٨ ف ٢٩ ص ٦٠٦ ب ٩ وما يليه) :

« وفي ليبيا يبلغ طول الحيات مبلغاً مفزعاً ، حسبما يقولون . ذلك ان البحارة الذين ابحروا في هذه النواحي يروون انهم شاهدوا كميات هائله من العظام الناتجة عن ثيران لا يشك هؤلاء في ان الحيات هي التي التهمتها : لأنهم حين كانوا يأخذون في الإبحار كانت هذه الحيات تطارد سفنهم بسرعة ، وبعد ان تقلب السفينة ظهراً لوجه تقذف في البحر بكثير من الملاحين . وثمّ ملاحظة اخرى وهي : ان الأسود اوفر عدداً

في ليبيا[1] ، وكذلك في ذلك القسم من اوروبة الواقع بين نهر اخيلوس ونهر نستوس ، ويوجد نمور في آسيا ، ولا توجد في اوروبا ، وبوجه عام فان الحيوانات المتوحشة اكثر توحشاً وجسارة في آسيا منها في اوروبا، لكن في ليبيا تبدى الاشكال الحيوانية غن تنوّع اشد ، وثمّ مثل يقول ان ليبيا تأتي دائماً بشيء جديد . ففي هذا البلد يبدو بوضوح انه بسبب ندرة الماء تتجمع الحيوانات المختلفة الانواع في المواضع التي يوجد فيها شيء من الماء ؛ وهنا ينزو بعضها على بعض ، ويكون النزاء منتجاً إن كان بين انواع تتفق في مدة الحمل ولا تتفاوت كثيراً في طول وحجم القامة . وهذه الحيوانات ، في علاقاتها بعضها مع بعض ، تفقد من شراستها ، بحكم اندفاعها بالحاجة الى الماء ، وضرورة الشرب هذه يزداد شعورها بها في الشتاء اكثر منه في الصيف بعكس ما يحدث للحيوانات في سائر البلاد : لأنه لما كان الماء مفقوداً في الصيف عادة ، فانها تتعود على عدم الشرب في الصيف ؛ وهكذا فان الفئران على الاقل تنفق حالما تشرب . »

وهذه الفقرة من اطول المواضع التي تحدث فيها ارسطو عن ليبيا .

ونلاحظ اولاً على هذا النص :

(أ) ان ارسطو في كلامه عن الأسود وكثرتها في ليبيا قد استمد معلوماته من هيرودوت في تاريخه (الكتاب السابع : ١٢٦) ، ومن

---

١ في المخطوطات كلها يرد هنا اسم : « أوربا » بدلا من ليبيا . ولكن ل. دتماير في نشرته الممتازة لنص ارسطو صحح هذا الموضع الى : « ليبيا » استنادا الى النص الوارد عند بولبيوس (الكتاب ١٢ : ٣)
Aristotelis *de Animalibus Historia*, textum recognovit L. Dittmeyer. Leipzig, 1907.
وقد أخذ بهذا التصحيح الناشرون التالون والمترجمون (تومبسون ، تريكو ، الخ) .

اكسينوفون في Cynegeticus (ف ١١) .

(ب) انه يقصد من ليبيا الاجزاء المعروفة من القارة الافريقية (فيما عدا مصر) ، بدليل انه يضعها في مقابل اوروبا وآسيا ، فضلاً عن ان الامور التي نسبها اليها لا يمكن ان تنسب إلا الى القسم الشمالي من القارة الافريقية ، وهو الذي كان معروفاً من افريقية لأرسطو وسائر المعاصرين له من اليونانيين . اما مصر فكانت تفرد دائماً على حدة ، ولا تندرج في هذا القسم الشمالي من القارة الافريقية . وارسطو يذكر اسم مصر في كتاب « تاريخ الحيوان » اثني عشرة مرة .

(ج) ان الفئران التي تموت من مجرد الشرب يقصد بها ارسطو الفئران الليبية فقط ، كما برهن على ذلك دتماير في نشرته ، لأنها تعودت العطش ، فاذا شربت نفقت .

والكلام عن الحيات يقودنا الى النص التالي :

٧ – وهو يقول (٦٠٧ أ س[٢١] وما يليه) :

« وعضات الحيات تتفاوت ايضاً تفاوتاً كبيراً . . والصل aspis يوجد في ليبيا : ويستخرج من هذه الحية مادة تسبب التعفن ولا يوجد لها اي دواء . ويوجد في السلفيون حية صغيرة تداوى عضتها – كما يقال – بنوع من الحجاره المأخوذة من مقبرة ملك قديم ، ويغمس هذا الحجر في نبيذ ويشرب » .

والصلّ – وهو باليونانية ἀσπίς ، وباللاتينية aspis ، وبالانجليزية asp ، وبالفرنسية aspis – هو الناشر المصرية Egyptian Cobra ، وهو البزاقة التي تحدث عنها ابن سينا فقال في وصفها : « ومنها البزاقة : فانها تقدر ان تمجّ بزاقها وتزرقه بعصر اسنانها بعضها على بعض فتقتل مَن يقع عليه بصاقها او رائحة بصاقها ؛ وطولها ذراعان ، ولونها رمادي الى الصفرة » . واسمه العلمي اللاتيني Naja haje L. .

وبهذه الحية – الصلّ – قتلت كليوباترة نفسها لأن الصل او الكوبرا

المصرية كان ذا اهمية ودلالة كبيرتين في الديانة المصرية القديمة . وقد وهم من ظن انها قتلت نفسها بغير الصل aspis ، اذ اجمعت على ذلك المصادر القديمة كما بيّن ذلك Stählin في دائرة معارف باولي فيسوفا Real Enzyclopädie der klass. Altertum Swissen. حـ ١١ ق، (سنة ١٩٤٧) و ف.اسبوردون F. Sbordone في مقال له بعنوان: « موت كليوباترة عند الأطباء اليونانيين » ، في « المجلة الهندية اليونانية الايطالية » ص ١٤ (سنة ١٩٣٠). «La morte di Cleopatra nei medici greci», in Rivista indo-greco- italica, XIV (1930). [1]

٨ – اما السلفيون – واسمه اللاتيني Thapsia Silphium –فنبات اشتهرت به قورينا في العصر القديم ، وكان يستعمل دواءً وتابلاً من التوابل .

---

[1] وراجع أيضا

a - A - Bouché - Leclerq : *Histoire des Lagides*, Paris 1903-1907, II, pp. 177-332.

b - E. Bevan : *A history of Egypt under the Ptolemaic dynasty*, London, 1927, pp. 359-384.

c - A. Brome Weigall : *The life and times of Cleopatra, Queen of Egypt*, London, 1914, 2nd ed. 1921.

d - W. Spiegelberg, in *Sitzungsberichte der Bayer. Akademie der Wissenschaften*, 1925, fasc. 2.

e - O. von Westheimer : *Kleopatra, die genialiste Frau der Weltgeschichte*, Leipzig, 1930.

f - G. P. Mahaffy : *The Empire of the Ptolemies*. London, 1895, pp. 445—486.

g - G. Ferrero : *Grandezza e decadenza di Roma, Milano, II*, pp. 417-447; III, 1904 pp. 411-563.

h - E. Kornemann: *Grosse Frauen des Altertums*, 1942.

i - H. Volkmann : *Kleopatra*, 1953.

وقد فصل القول فيه بلنيوس (الكتاب التاسع عشر : ٣ ، ١٥). ومن قبله وصفه ثيو فراسطس (٦ : ٣) فأطال الوصف ، وتحدث عنه ديوسقوريدس (المقالة الثالثة) بالتفصيل . ويذكر بلنيوس العجوز ان هذا النبات كان نادراً جداً في عهد نيرون الى حد انه لم يوجد في قورينا غير شجرة واحدة لإرسالها الى الامبراطور ؛ اما في عهد يوليوس قيصر فكان لا يزال موفوراً اذا صحّ ما قيل انه باع منه ١١١ رطلاً ليواجه نفقات الحرب الاهلية . ولكن هذا النبات كان من الندرة والفائدة بحيث كان يباع بوزنه ذهباً آنذاك . ويرجع بلنيوس العجوز السبب في هذه الندرة الى تسلط القطعان الراعية على هذا النبات حتى قضت عليه.وفي القرن الخامس الميلادي ، على عهد سينوسيوس ، لم يكن من الممكن العثور على هذا النبات في قورينا . ولهذا يرى A. Oersted ان نبات السلفيون اختفى من قورينا قبل الفتح العربي في منتصف القرن السابع الميلادي . ومن ثم صار من الألغاز العلمية التاريخية [١] .

وفي نفس الفصل ايضاً يقول (٦٠٦ أ ١٩ وما يليه) :

---

١ راجع عن السلفيون وتاريخه :

a) A. Oersted: *Sur la plante disparue du sylphium de l'antiquité.* Copenhagen, 1869.

b) F. Hérincq: *La vérité sur le prétendu silphion de la Cyrénaïque.* Paris, 1876.

c) Berendes : « *Ueber das Sylphion der Alten,*» in *Archiv der Pharmazie,* CCXLIII.

d) E. Durand et G. Barratte : *Florae lybicae prodromus,* Genève, 1910.

e) B. Bonacelli : « Il silfio nell'antica Cirenaica », in *Boll. inform. economiche del Ministero delle colonie, 1924.*

f) C. Tedeschi : « L'enigma del silfio cirenaico », in *Notiz ,eco-comico della Cirenaica,* II (1928), idem, «Il silfio : un enigma nella storia botanica della Cirenaica», in *Rev. delle Colonie III.*

« وفي ليبيا ، بين انواع الدواب ، الدواب ذوات القرون تنجم لها قرون ساعة ان تولد، وليس هذا في الحملان فقط كما يقول هوميروس بل وايضاً سائرها . اما في البنطش، على حدود اسقوثيـــا ، فالأمر على العكس : الكباش لا قرون لها . »

وارسطو يشير الى قول هوميروس في « الأوديسا » (النشيد الرابع، البيت رقم ٨٥) . ومصدره هنا هيرودوس (الكتاب الرابع، ف ٢٩).

وفي النص هنا بعض الاختلاف . وهاك ترجمة رواية اخرى له :

« وفي ليبيا يولد الكبش الطويل القرن بقرون ، وليس الكبش وحده كما يقول هوميروس ، بل وأيضاً النعجة ؛ وفي البنطش ، على حدود اسقوثيا ، يكون الكبش بغير قرون » .

٩ ــ والموضع الأخير في « تاريخ الحيوان » الذي ذكر فيه ارسطو اسم ليبيا هو الوارد في الفصل ١٥ من المقالة التاسعة (ص ٦١٦ ب س د) وها هو ذا :

« ويقال إن القرقف يبيض بيضاً كثيراً جداً .لكن بعضهم يؤكدون ان الطائر المسمى الميلانكوفورس μελαγκόφυρος هو اكثر الطيور بيضاً بعد زرافة ليبيا : اذ شوهد يبيض حتى السبع عشرة بيضة ؛ والواقع انه يبيض اكثر من عشرين ، لكن عددها دائماً عدد فردي ، فيما يقال» . والميلانكوفورس ربما كان هو الـ Motacilla atricapilla (راجع : Camus *Histoire des animaux d'Aristote* avec la traduction française, Paris, 1783, II, 795-6.

والقُرْقُف (وهو بالفرنسية mésange. ، وبالانجليزية tit, titmouse) طائر صغير كأنه الصعو ، ويسمى في الشام « سن المنجـــل » ، وفي العراق : القرقف او القرقب . وفي « تـــاج العروس » : « القرقف كهدهد: طير صغار كأنها الصعاء (جمع صعو) ، او القرقب ــ بالباء الموحدة ــ على ما حققه الأزهري » (ج٦ ص ٢٢١).

ب – كتاب « المسائل » Problemata

١٠ – فاذا انتقلنا من كتابي « تاريخ الحيوان » و « تكوين الحيوان » الى كتاب « المسائل » وجدنا ليبيا مذكورة في ستة مواضع .

وأولها يرد في المقالة ١٢ ، ف٢ ، حين يتحدث عن طيب الرائحة في مختلف اماكن المعمورة فيقول :

« وفي العالم كله ، الأجزاء المعرضة للشمس أطيب رائحة من تلك التي في اتجاه الشمال ؛ ومن بين الأولى : تلك التي في اتجاه الشرق رائحتها اطيب من تلك التي في اتجاه الجنوب ، لأن مناطق سوريا والبلاد العربية أوفر حظاً من الرطوبة ، لكن ليبيا رملية وخالية من الرطوبة . اذ ينبغي ألا يوجد قدر كبير من الرطوبة – لأن كثرة الرطوبة تعسّر الطبخ – ولا ينبغي ايضاً ان يخلو منها ، وإلا لن يتم تبخير » (ص ٩٠٦ ب ١٥ – ٢٢) .

١١ – والموضع الثاني فيه هو (م ٢٣ ف ٢١ ص ٩٣٣ ب ٣٣ – ٤٠) :

« ما السبب في انه اذا حفر المرء حفرة بالقرب من البحر في ليبيا ، فان الماء الذي يتدفق في البداية قابل لأن يُشرب ، لكنه سرعان ما يصير ملحاً ، وهذا الأمر لا يحدث في الأماكن الأخرى إلا أقلّ ؟ الأن الماء الذي يتدفق اولاً هو الماء الذي كان هناك من قبل وقد طبخته الأرض ، لكن بعد مدة يرشح البحر من خلاله ، ولأنه لم يكن لديه وقت ليعاني اي تغير فانه يجعل الماء أشد ملوحة؟ »

وأرسطو يورد ليبيا هنا على سبيل المثال ، لا الحصر والقصر ، بدليل أنه في الفصل ٣٧ من هذه المقالة الثالثة والعشرين يكرر نفس المعنى والسؤال بصيغة عامة ، دون ان يقصر هذه الظاهرة على بلد بالذات ، وهنا يفسرها على اساس ان في البحر بعض العذوبة ، وان الماء العذب أخف من الماء المالح ، ولهذا يأتي الماء العذب اولاً ، وبعد الاختلاط

يصير ملحاً اكثر .

١٢ – والموضع الثالث يعود بنا الى الحيوان في ليبيا اذ يتحدث عن الغنم فيقول (م[١٠] ف ٤٧ ص ٨٩٦ أ س ٢٤ – ٢٩) :

« والنوع الواحد قد يحمل مرة واحدة في بعض الأماكن ، بينما في اماكن اخرى يحمل عدة مرات ؛ فمثلاً الغنم في مغنيسيا وليبيا تحمل مرتين في العام . والسبب في ذلك طول مدة الحمل ؛ لأن الحيوان اذا اشبع شهوته ، لا يشتهي بعد ذلك ، مثلما أنه حين يغتذي فانه لا يطلب مزيداً من الغذاء . ولهذا فان الحيوان حين يحمل تقل شهوته للجماع ، لأن التطهر الحيضي لا يحدث . »

١٣ – والموضع الرابع والخامس يتعلقان بالرياح،ونصه (م ٢٦ ف ١٦ ص ٩٤٢ أ ٥ – ١٦) :

« لماذا تهب الرياح الجنوبية خلال الشتاء وفي بداية الربيع ونهاية الخريف ، ولماذا يكون لها هزيم ودوران في مجراها ، ولماذا كانت باردة على سكان ليبيا على نفس النحو الذي به الرياح الشمالية باردة علينا ؟ الأنه لما كانت الشمس قريبة فان الرياح لا بد ان تتحرك ؟ وخلال الشتاء تسير الشمس في اتجاه الجنوب ، وكأنها في بداية الربيع وعند نهاية الخريف تثبت الحرارة ، بينما في اثناء الصيف ترحل الشمس في اتجاه الشمال وتترك سائر المناطق . والريح الجنوبية حارة لأنها تخرج نسماتها بالهواء في منطقة ليبيا، وهي حارة ؛ ولهذا فان لها هزيماً ، وتجعل الصيف ممطراً ، منحدراً الى البحر . »

وقد اشار ثاوفرسطس الى هذه المسألة (فقرة ٦٠)

١٤ – وعاد ارسطو الى معالجة نفس الموضوع في الموضع الخامس ، وبنفس العبارات تقريباً ، فقال (م ٢٦ ف ٤٩ ص ٩٤٥ ب ٣٥ – ٩٤٦ أ ٣) :

« لماذا كانت الرياح الجنوبية باردة في ليبيا كما ان الرياح الشمالية

باردة علينا ؟ هل اولاً لأن منابع هذه الرياح اقرب الينا واليهم نسبياً ؟ لأنه اذا مرّت الرياح – كما قلنا من قبل (يشير الى ما ورد من قبل س ٢٢ وما يليه) – خلال مجرى ضيق ، فانها تكون ابرد على من هم اقرب اليها بسبب عنف حركتها ؛ وحين تتقدم حركتها أكثر فأكثر ، تتشتت . ومن هنا فان الرياح الشمالية باردة في هذا القسم الذي نسكن من العالم ، لأننا اقرب اليها ونسكن بالقرب من القطب » .

ومن هذا يتبين ان كلا الموضعين الأخيرين يفسر بعضهما بعضاً .

والموضع السادس (م ٢٦ ف ٥٤ ص ٩٤٦ ب ٣٣) يتحدث عن الريح الشمالية في قورينا وكونها ممطرة .

جـ – في « الآثار العلوية »

١٥ – وفي « الآثار العلوية » Meteorologica يذكر ارسطو ليبيا في أربعة مواضع . وأولها يتعلق بمنابع الأنهار ، فيحدثنا عن نهرين في ليبيا لم يستطع الباحثون حتى الآن تحديد المقصود بهما . وهاك نصه : (م١ ف ١٣ ص ٣٥٠ ب س ١٠ – ١٤) :

والأمر كذلك في ليبيا ، ففيها تنحدر بعض الأنهار ، وهي الايجون Aegon والنوسس Nysès ، من الجبال الحبشية ؛ والبعض الآخر ، وهي أكبر الأنهار التي سميت بأسماء ، وهي مـا يسمى باسم خراميتس Chrémétis ، الذي يصب في البحر الخارجي ، والمجرى الرئيسي للنيل فكلاهما ينبع من الجبال المسماة باسم جبال الفضة » .

ونهر خراميتس هو ساقية الحمراء ؛ أما جبال الفضة فهي التي يسميها بطلميوس (« الجغرافية » م ٤ ف ٨ ص ٣٠٧ من نشرة Wilberg) باسم جبال القمر .

١٦ – وثاني هذه المواضع يقول (م[1] ف ١٤ ص ٣٥٢ ب س ٣٢ وما يليه) :

« وليبيا ، بلد آمون ، واضحٌ انها – ضدّ كل سبب – اشد انخفاضاً وعمقاً من البلاد السفلى . اذ انه من الواضح انه تكونت رواسب نهرية ، تلاها ركود وأرض ثابتة ، وعلى مر الزمان جف الماء الذي بقي وركد، واختفى الآن نهائياً » .

وهنا يستوقفنا في هذا النص قوله : ليبيا ، بلد آمون ؛ لأن هذا يؤذن بأنه يفهم من ليبيا احياناً بلاد برقة في ليبيا الحالية حيث كان الإله آمون يُعبد ، كما كان يعبد في واحة سيوه وفي شمالي الدلتا في مصر.

١٧ – والثالث يقول (م[2] ف ٣ ص ٣٥٨ أ ٣٥ – ٣٥٨ ب ٣) :

« ورياح الشمال ، لما كانت قادمة من مناطق رطبة ، فانها تكون محملة بالبخار، وتبعاً لذلك تكون باردة . ولأنها تطرد (الغيوم امامها)، فانها تأتي بالجو الجميل في اقاليمنا، لكنها تكون ممطرة في الأماكن الواقعة في مقابلنا (= أي في الجنوب) ؛ وعلى هذا النحو فان رياح الجنوب تأتي بالجو الجميل في مناطق ليبيا . وهكذا فان ريح الجنوب تحمّل المطر الهاطل بكمية كبيرة من هذه المادة . »

١٨ – وفي الموضع الاخير يعود الى الحديث عن رياح الشمال فيقول (م ٢ ف ٥ ص ٣٦٣ أ س[1] – س[8]) :

« ولأن هذا القسم من الأرض الذي نسكنه يقع في الشمال فان رياح الشمال تهب في الاغلب . ومع ذلك ، فان مناخ هذه المنطقة نفسها ، تضعف وتعجز عن التقدم الى الامام : لأنه ، في البحر الجنوبي الواقع بعد ليبيا ، فان رياح الشرق والغرب (الأوروس والزفير) تهب دائماً على التبادل ، على نحو ما تهب عندنا رياح الشمال والجنوب . فمن الواضح

اذن أن ريح الجنوب ليست ريحاً تهب مبتدئـــة من القطب الآخر (أي القطب الجنوبـي) » .

د – في « العالم » De Mundo

١٩ – وفي كتاب « في العالم » ، وهو منحول على ارسطو ، نجد تحديداً لمعنى « ليبيا » = افريقية لا يدع بعد ذلك مجالاً لأي شك في المقصود عند ارسطو من اسم ليبيا وهو انها تعنى افريقية (الشمالية بوجه خاص) .

وفيه يذكر اسم ليبيا مرتين : في الاولى يقول (فصل ٣ ص ٣٩٣ب س ١٨ – ٢٢) :

« واتساع الجزء المسكون من العالم في اقصاه على الارض أقل من ٤٠,٠٠٠ اسطاديا ، في تقدير احسن الجغرافيين وطوله حوالى ٧٠,٠٠٠ اسطاديا . وينقسم الى اوروبا وآسيا وليبيا » .

وواضح من هنا كل الوضوح ان المقصود بليبيا هو القارة الافريقية، اذ هي في مقابل اوروبا وآسيا .

٢٠ – والمرة الثانية قريبة من الموضع السابق (فصل ٣ ص ٣٩٣ ب س[٣١] – ٣٩٤ أ س[٤]) وفيها يقول :

« وليبيا تمتد من الخليج العربـي (= خليج السويس) الى اعمـــدة هرقل (= جبل طارق) ؛ ومصر ، ويحيط بها مصاب النيل ، يضيفها البعض الى آسيـــا ، والبعض الآخر الى ليبيـــا ؛ والبعض يستبعد الجزر من كلتا القارتين ، والبعض الآخر يضيفها الى اقرب ما يجاورها . »

وهذا الموضع يزيـــد في توكيد المعنى المقصود من ليبيا عند الاقدمين وهو انها تشمل افريقية (الشمالية خصوصاً)

هـ – في « العجائب » De Mirabilibus Auscult ationibus

٢١ – وفي كتاب « العجائب » ، وهو ايضاً منحول على أرسطو، نجد قورينا تذكر مرتين ، وليبيا ثلاث مرات .

والموضع الأول عن الفئران في قورينا ، وفيه يقول (فقرة ٢٨ ، ص ٨٣٢ ب س١ – س٣) :

« الناس يقولون انه في قورينا يوجد ليس فقط نوع واحد من الفئران، بل انواع عديدة مختلفة في الشكل وفي اللون ؛ اذ بعضها عريضة الوجه مثل ابنُ عِرْس mustela ، وبعضها مثل القنفذ الذي يسمونه اخينوس».

على أنه يلاحظ على هذا النص ان ابن عرس ليس عريض الوجه . ولهذا فانه لا يُدرى على وجة الدقة أي حيوان يشير اليه ارسطو هنا[١] .

٢٢ – والموضع الثاني (فقرة ٦٨ ص ٨٣٥ أ ٣٣) بقوله :

« ويقولون ان الضفادع في قورينا بكماء تماماً »

٢٣ – والموضع الثالث (فقرة ١٣٣ ص ٨٤٤ أ ٥ وما يليه) يتعلق بنقش لهرقل وزوجته اروثا Erythe وبلد نسبت اليها باسم اروثيا Erytheia ، وفيه يقول :

« ويقولون انه لا يوجد في أي مكان في ليبيا ولا في ايبريا اسم اروثيا . وفي المدينة المسماة أوتيكا Utica في ليبيا، وتقع – حسبما يقولون – على الخليج القائم بين رأس هرمس ورأس هبوس ، وعلى مسافة ما يقرب من مائتي قصبة بعد قرطاجة (ويقال الآن ايضاً ان أوتيكا قد أسسها الفينيقيون قبل قرطاجة بمائتين وسبع وثمانين سنة قبل قرطاجة نفسها، كما هو وارد في التواريخ الفينيقية) ، يقول الناس ان الملح يحصل عليه

---

١ راجع فهرست بونتس ١٤٥ بس ٤٣

Bonitz : Index Aristotelicus. Berlin, 1870.

بالحفر الى عمق ثماني عشرة قدماً ، وهو في الظاهر ابيض وليس صلباً ، بل يشبه الصمغ الدابق جداً ، وحين يُعرَّض للشمس يصلب ، ويصير مثل المرمر البارياني ؛ ويقولون انه منه تنحت اشكال حيوان وادوات .»

٢٤ – والموضـــع الأخير في كتاب « العجائب » يتعلق بالعنب او شجر الكروم ، وفيه يقول (فقرة ١٦١ ص ٨٤٦ أ ص ٣٨ – ٨٤٦ ب س ٢) :

« وفي ليبيا عنب ، يسميه البعض العنب المجنون ، إذ ان بعض ثمره ينضج ، والبعض الآخر يصبح مثل العناقيد غير الناضجـــة ، والبعض الثالث يظل براعم زهرية ، وهذا الأمر يستمر وقتاً قصيراً » .

و – « مواقع الرياح وأسماؤها »

Ventorum situs et appellationes ex Aristotelis Libro De Signis

٢٥ – وكتاب « في العلامات » ، ينسب عادة الى ثيوفراسطس ، لكنْ فيه تشابه مع ما اورده ارسطو في « الآثار العلوية » ومع ما ورد في رسالة « في العالم » . وعنه اخذت هذه الرسالة « في مواقع الرياح وأسمائها » .

وقد ورد فيها اسم قورينا ثلاث مرات ، واسم ليبيا مرة واحدة .

والموضع الأول يتعلق باسم الريح الشرقية (ص ٩٧٣ أ ١٤ ، ٢١) :

« هذه الريح تسمى Potameus في طرابلس بفينيقيا ... وفي خليـــج طرابلس تسمى Marsus من اسم قرية Marsus ... وفي بروكونيسوس وتيوس وكريت ويوبوا وقورينا تعرف باسم Hellespontias . وتتسبب

في العواصف خصوصاً.. في ميناء قورينا المسمى باسم ابولونيا Apollonia (سوسة حالياً) ».

٢٦ – والموضع الثاني بعد هذا بقليل ، ويتعلق باسم الريح الجنوبية الشرقية (ص ٩٧٣ ب س ٤) .

« وفي قورينا تعرف باسم كرباس Carbas وهو مأخوذ من الكربانيين في فينيقيا ، ومن هنا فان بعض الناس يسمي هذه الريـــح نفسها باسم فينيقياس Phoenicias » .

٢٧ – والموضع الثالث يتحدث عن الريح الجنوبية الغربية ، المعروفة باسم لبس ؛ ويقول (٩٧٣ ب س[١١] س[١٢]) :

« لبس (الريح الجنوبية الغربية) . هذه الريح اتخذت اسمها من ليبيا ، اذ منها تهب » .

ز – في كتاب « السياسة » Politeia

٢٨ – ومن المواضع التي ذكر فيها ارسطو ليبيـا موضع طريف نجده في كتاب « السياسة » (ص ١٠٦٢ س ١٩ وما يليه) يـدور حول الأولاد والآباء وما بين كليهما من مشابه يمكن ان يستدل منها على تحقيق الأبوة والبنوّة . قال ارسطو :

« الجغرافيون يقولون إن هذا هو الواقع ، ويذكرون انـــه في ليبيا العليا ، حيث النساء على الشيوع بين الرجال ، فان الأولاد الذين ينجبون ينسبون الى آبائهم على اساس المشابهة بين الآباء والأبناء . فينسب الولد الى من يشبهه من الرجال» .

وقد اخذ ارسطو هذا القول عن هيرودوت (الكتاب الرابع : ١٨٠).

* * *

٢٩ – وثم موضع آخر في كتاب «السياسة» يتحدث فيه عن الثورة التي اندلعت في قورينا لأسباب دستورية .

إذ يتحدث ارسطو عن النوع الأخير من الديموقراطية وهو الذي فيه يشارك كل المواطنين على السواء ، وهو نوع لا يمكن كل دولة ان تتحمله ، ولن يبقى طويلاً الا اذا نظمته جيداً القوانين والعادات . ولإيجاد مثل هذا اللون من الديموقراطية وإعطاء السلطة للشعب ، فان زعماء الحزب الشعبي يلحقون في العادة بهيئة المواطنين اكبر عدد ممكن من الافراد ويمنحون حق المواطنين ليس فقط للأبناء الشرعيين ، بل وأيضاً الى غير الشرعيين ، بل والى الابناء الذين يكون احد والديهم فقط ، سواء أكان الأب أو الأم ، مواطناً : لأن هذا الحشد يناسب تماماً الديموقراطية التي من هذا النوع . وتلك هي الطرق المستعملة عادة من جانب الديماجوجيين. وما ينبغي عمله حقاً هو الا يعطى حق المواطن الجديد الا بقدر الحاجة والضرورة من اجل ان تفوق الكثرة في عددها عدد الأعيان ورجال الطبقة الوسطى ، ولا تتجاوز هذا القدر ، لأنه اذا تجووز هذا القدر في هذه المسألة ، فان الشعب يزيد في اضطراب الدولة ، ويضايق الطبقات العليا التي تتحمل الديموقراطية على مضض .

« وهذه العداوة كانت هي السبب في الثورة التي حدثت في قورينا ؛ لأن الضرر الخفيف يمر دون أن يُلحظ ، لكنه حين يزداد خطورة[1] فانه يتجلى بسهولة امام الناظرين . وفضلاً عن ذلك فان الديمقراطية التي من هذا النوع تقدر فائدة النظم المشابهة لتلك التي استعان بها كليسثانس Clisthène في أثينا – حين رغب في زيادة سلطة الديمقراطية – واستعان بها في قورينا اولئك الذين اقاموا الحكومة الشعبية : من زيادة

---

١ أي حين يتجاوز عدد العناصر الجديدة في السكان القدر الحرج .

عدد القبائل والفراطريات ، واختزال العبادات الخاصة الى اقل عدد ، وتحويلها الى اعياد شعبية عامة ، واستخدام كل الوسائل لمزج المواطنين بعضهم ببعض على اكبر قدر ممكن ؛ وحلّ الروابط الاجتماعية التي كانت قائمة من قبل . » (المقالة السادسة ، الفصل الرابع ص ١٣١٩ ب س ١٧ – ٢٦) .

والثورة التي يشير اليها ارسطو ها هنا هي تلك التي وقعت في قورينا سنة ٤٠١ ق. م. (راجع ديودورس ، الكتاب ١٤ : ٣٤) وقد وصفها ديودورس الصقلي فقال :

« وفي ذلك الوقت حدث اضطراب بين اهل قورينا ، منذ ان استولى أرسطون ، هو واخرين ، على المدينة . وقد قُتل من بين أهل قورينا خمسمائة من اكبر المواطنين نفوذاً ، وأجلُّ الباقين نُفوا . واضاف المنفيون اهل مسينا الى عددهم واشتركوا في المعركة مع اولئك الذين استولوا على المدينة ، وذبح كثير من اهل قورينا من الطرفين المشتركين في القتال ، لكن أهل مسينا قتلوا عن بكرة ابيهم تقريباً . وبعد المعركة تفاوض اهل قورينا واتفقوا على المصالحة واقسموا في الحال على ألا يتذكروا الاهانات الماضية، وعاشوا كتلة واحدة في المدينة.» (ديودورس الصقلي مع ترجمة انكليزية لـ C. H. OLD Father ، حـ٦، ص ١٠٩– ١١١ . لندن ، هينمان ، سنة ١٩٥٤) .

* * *

تلك هي المواضع التي اورد فيها ارسطوطاليس ذكر ليبيا وقورينا . وهي كما ترى مواضع وفيرة . ويلاحظ عليها :

١ – ان أرسطو حين كان يقصد ليبيا الحالية كان يذكرها باسم قورينا ؛ ومرة واحدة ذكرها مع وصف محدد باسم « ليبيا، بلد آمون » .

٢ – وفيما عدا ذلك فان كلمة ليبيا تعني في سائر المواضع افريقية : القارة ، والقسم الشمالي منها بخاصة حتى خط الاستواء .

٣ – انه اعتمـــد كثيراً في معلوماته عن ليبيا عـــلى « تاريخ » هيرودوت . ولكنه لم يأخذه عـلى علاته أو بحروفه ، بل كان احيـــاناً يضيف اليه زيادات وتفصيلات مأخوذة عن مصـــادر اخرى ، واحياناً اخرى كان يشكك في رواية هـــيرودوت ؛ وعلى كل حال فانه كان قليلاً ما يأخذ بتفسيرات هيرودوت للظواهر التي يشاهدها .

٤ – ان معلوماته في الغالب دقيقة ، واذا حاك في صدره الشك فيها ذكر الرواية مصدرة بقوله : « ويقول النـاس ... » ، « ويقال » ، و « حسبما يقال » ، الخ من عبارات التشكيك او تبرئة الذمة من عهدة الخبر ، لأن ارسطو لم يَزُر ليبيا ، وإلا لكانت معلوماته اوفر ، ولكان قد قطع هذه الشكوك بيقين المشاهدة .

عبد الرحمن بدوي